

-١٢٩-

- إن القول بالواضع الأول للغة يرتبط بالبحث في نشأة اللغة التي وجدت من الباحثين القدماء - العرب والأجانب - عناية كبيرة ، فتشعبت الآراء ، وكثرت وجهات النظر ، ولكن منذ القرن الثامن عشر لم يعد لهذا البحث قيمة علمية لدى اللغويين المحدثين إذ كتب Herdar في هذا القرن يقول في كتابه : «معجزة نشأة اللغة» لقد اخترعت اللغة بوسائل الإنسان الخاصة ، ولم تتبكر بصورة إلهية بطريق التعليمات الإلهية ، لم يكن الله هو الذى اخترع اللغة للإنسان ، ولكن الإنسان نفسه هو الذى اضطر إلى اختراعها بطريق ممارسة قدراته الخاصة .

وأضيف إلى ذلك أن اللغة لم تتبكر بطريق التوقيف أيًا كان ، فليس هناك واضح أول - إلهي أو بشري - يتوقف عليه وضع الألفاظ أو دلالتها ، بل إن البحث في نشأة اللغة - عموماً - لا يؤذن له الآن بالدخول في المنهج الحديث ، إذ هو بحث غيبي لا يدخل في إمكان الباحث .

ويتقرر هذه الحقيقة يتبين قيمة الأساس الأول الذى يفترضه علماء البلاغة في دراستهم للفكرة ، فافتراض الواضع الأول لدلالة الألفاظ - وعلى أساسها تكون الحقيقة ويتغيرها يحدث المجاز - افتراض قد جانبه التوفيق .

- أما اعتبار اللغة عصراً واحداً في تحديد دلالة الألفاظ وفي الاستشهاد بها مع أنها تمتد أماداً بعيدة في الجاهلية وفيما تلاها من قرون - هذا المدى الزمنى الطويل لم يدرس بهذا الوصف، بل درس على أنه مدى واحد ، ومرحلة واحدة ، فإذا أخذنا في الاعتبار مع ذلك أن اللغة ظاهرة اجتماعية تتطور باستمرار ، وإن لكل مرحلة منها خصائص مستقلة في الدلالة وفي غيرها ، قد تكون جديدة تماماً أو متجددة عما سبقها تبيّن لنا السبب في اضطراب منهج الأقدمين ، واعتبارهم الألفاظ كلها حقيقة أو كلها مجازاً ، إذ قد يكون للفظ تاريخ مجازي ينسى مع هذا المدى الطويل - ومن هنا جاء القول بأن كل الألفاظ حقيقية - كما يحدث العكس أيضاً ، إذ قد يكون للفظ تاريخ مجازي ينكره بعض العلماء - ومن هنا ما قيل من أن كل الألفاظ مجازية .

والخلاصة أن هذا الأساس الثانى أيضاً ممّا أُخذ في اعتبار البلاغيين - وغيرهم من علماء اللغة - أساساً قد جانبه أيضاً التوفيق .